وتراقب النهر، لم تدر إن كانت صرخاته تعبيرا عن الفرح أو الخوف، ولكن النهر كان غاضبا، سطحه النحاسي متلاطم الأمواج، ومياهه تواصل الارتفاع، يوشك أن يعلو على الضفاف التي تحيط به، وكان الرجل يتوقف كل فترة، يلتقط حفنة من الماء المشبع بالحمرة، وينثره في الهواء، ثم يعاود الجري والصراخ من جديد: «ياعوف الله....» وكانت الريح تهب ساخنة من البر الغربي من فوق سفوح الجبل، كانت «عائشة» كعادتها قد استيقظت قبل كل البنات، ورأت النهر يعلو ويزداد حمرة داكنة مع ارتفاع الضوء، لم تخرج مراكب الصيد، كان الصيادون يعرفون أن النهر في لحظة غضبه يجرف أمامه التربة الحمراء وأسماك البلطي والقوارب، اختفى الرجل في اتجاه المدينة وهو ما زال يواصل الصياح، راقبت عائشة طيور النهر وهي تدور في فزع، كانت هذه رحلتها الصباحية، ولكنها في هذه اللحظة كانت تطير بشكل مهوش، كان هناك شيء يفزعها ويمنع انتظامها في شكل رأس السهم الذي تعودت عليه.

كان النيل نهرا من أغرب أنهار الدنيا، في الصيف عندما تجف كل الأنهار يخالف النيل الناموس وتفيض مياهه على الضفاف، وتهب عليه رياح متجهة للجنوب ولكن أمواجه تعاكسها وتنساب نحو الشمال، ينحدر من تلال إفريقيا البعيدة، مهيبا كملك، لا يأبه بالغابات الكثيفة، ولا بحرقة الصحراء الممتدة، يخترق جلاميد الصخور البالغة الصلادة، ويواجه ستة من الشلالات العنيدة، يملأ الغابات الصامتة بالصخب والهدير، يفور بالزبد، وينثر الرذاذ ويخلق أقواس قزح لاتتبدد، يجتاز أشجار السنط والأبنوس والصفصاف والجميز، ويمضي متفردا مثل شاعر حزين وسط مجاهل الصحراء،

لا توقفه الهضاب ولا كثبان الرمال ولا جبال من حجر صوان، يهبط بعنف من شلال عنق الجمل، وتفور مياهه عند شلال المرجان، ويتمهل ليلتقط أنفاسه قبل أن يقتحم شلالات بيت العبد والمعفور والحارك، وطوال هذه الرحلة الجافة لا يتلقى أي مدد إلا القليل من مياه نهر «عطبرة» السوداء، لا تجود عليه السماء بقطرات من المطر، ولا تذوب الثلوج من أجل إنعاشه، لا يحيط به إلا جلاميد حجرية داكنة، تشاركه أسرار الأبدية، ويحرص النهر بدوره على ألاّ يمحو ما عليها من نقوش وجعارين وخراطيش، يندفع وهو متقلب المزاج، حاملا طمي الخلق الأول، فيه شيء من رعونة النيل الأزرق، وبعض من حكمة النيل الأبيض، يعلو ويهبط، ويتفرق ويتبدد أحيانا ليضيع في مسارب المستنقعات، ثم يجمع شريانه الرئيسي المتوحد، لا يهدأ ولا يأخذ سمة الوقار والعبوس إلا عندما يلمح رؤوس النخيل في جنوبي وادي مصر، أقدم نخيل عرفه بشر، يقف مزهوا على ضفاف النهر منذ آماد بعيدة، غرسه الفراعنة وشذبه الأقباط وأكل من بلحه جنود الرومان وعرف الفاتحون العرب أسرار فسائله فنشروها.. تتناقص مياه النهر كثيرا وتفقد قوتها، ولكن السواقي تلاحقه، والثيران المغطاة الأعين لا تكف عن الدوران، وخلف كل ثور يجلس طفل صغير يمسك عصا مربوطا فيها حبل، أشبه بمفتاح الحياة، وهو يصيح : «عا..عا» فترتفع القواديس إلى أعلى حاملة دفقات سحرية من مياه النهر، ثم تلقي بها إلى القنوات التي تتفرع وتتفرع على وجه الأرض كشرايين الجسد، في وقت الفيضان تكون حمراء كالدم، والأرض سوداء كالمسك، والزرع أخضر كالياقوت، و القمح أصفر كأحجار اليشب.. تحتشد الغيطان المروية بالفول والذرة والشعير والعدس

والقرع والبطيخ والفلفل والطماطم والباذنجان واللوبياء، ويصعد النخل كأذرع الآلهة القديمة، جذوره في رطوبة الطمي، بينما رأسه في وهج السماء، يواصل النهر مسيره وسط صمت الوادي حتى ترتفع التراتيل، وتظهر أعمدة المعابد والمسلات وأبراج الكنائس والمآذن، وتنفرط عقود الحمائم كي تملأ عيونها من مشهد المياه الزمردية قبل أن تؤوب إلى أعشاشها في كل مساء.

سمعت «عائشة» من خلفها أصوات الصباح المعتادة، كان عنبر البنات المليء بالأسرة المتراصة قد بدأ في الاستيقاظ، ارتفعت أصوات التثاؤب، والصرخات الخافتة والمشاكسات الصغيرة، كن يعدن ترتيب ملاءات الأسرة، ويتهامسن عن الأحلام التي لم تكتمل والأسرار الخفية، أحست عائشة بيد صغيرة توضع فوق كتفها، وسمعت صوت إيزيس وهي تقول لها في رقة:

ـ لا تذهبي بعيدا، مازالت صلاة الصباح في انتظارنا.

استدارت إليها، إنه وجه إيزيس الأسمر المستدير، وشعرها الخشن الذي يعلو رأسها كأنه تاج قديم، وعيناها الواسعتان، وعلى شفتيها نفس الابتسامة الودودة، مدت «عائشة» يدها ولمست وجنتها، كانت «إيزيس» هي الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها منذ دخولها المدرسة، لم تحاول أن تسألها كثيرا، ولم تدقق في إجاباتها المقتضبة، ولم تستغرب عدم مغادرتها المدرسة أو محاولة السفر إلى بلدتها في الإجازات الطويلة، منحتها مودتها الصافية دون تحفظ أو تردد. قالت إيزيس وهي تشير إلى الشمس التي بدأت في الصعود عند حافة النهر الغاضب: